Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكنه يختلق شخصية روائية بصفات وسمات معينة هي شخصية سعيد صاحب المكتبة في قرطبة ، ثم يترك المؤلف هذه الشخصية تنفث كلامهـــا العجيب في الصفحات الأخيرة من الرواية ليضمن لكلامها هذا أثراً باقياً في نفس القارىء ، فماذا قال سعيد هذا ؟ قال لأمير المؤمنين : (... إن المنصب الذي يشغله أمير المؤمنين إنما ساقته إليه المقادير وهو غير مخير ،ولو وجد فيه سواه لبلغ إلى مثله . لا تغضب يا سيدي لو لم تولد في بيت الخلافة وينصرك الناس على قتـل الناس لم تبلغ هذا المقام ، فأنت وصلت إليه على جسر من الجماجم فوق بحر من الدم وأي فخر في ذلك؟ فلما رفعوا مقامك وبايعوك وجعلوك خليفة بنيت القصور وأكثرت من الجواري والخصيان وأمرت الناس أن يعظموك وقد فعلوا وهم يحسبون أن لك فضلاً عليهم والفضل لهم في صيانـة دولتك والدفاع عن حياتك . ثم أنت أنكرت على أحدهم جزءاً صغيراً مما تحوزه لنفسك ولا ذنب لك في ذلك ، فإنها القاعدة التي جرى عليها الناس من قبل . ولكنها ليست هي أسباب السعادة).

(فامتعض الناصر من تلك الجسارة ، لكنه تجلد وصبر عليه حلماً وسعة ، وقال : ربما كنت مصيباً)[٥٤] . ومن الواضح أنـه لم توجد شخصية سعيد هذا الذي يقول مثل هذا الكلام العجيب فقد اختلقه المؤلف اختلاقاً ليعبر من خلاله عن فلسفته الخاصة وآرائه الذاتية ومن الحيل الفنية المعروفة في القصة والمسرحية أن يخلق المؤلف شخصية تحمل أفكاره إلى القراء لأن المؤلف لا يملك أن يباشر تقديمها إليهم بنفسه ، ولقد حاول جرجي زيدان أن يصوّر سعيداً هـــذا في صورة الحكيم الحصيف ، ثاقب النظرة إلى الأمور على امتداد الرواية حتى إذا نفث كلماته هذه في الختام استقر في نفوسنا صدق هذا التقويم للحضارة الاسلامية العربيـة في المغرب ، فهي بدورها حضارة تقوم على الاستبداد والبطش ، على جسر من الجماجم فوق بحر من الدماء .

بقي أن نقف مع جرجي زيدان في روايته (شجرة الدر) لنرى كيف أرخ لتاريخ الإسلام في هذه المنطقة المتوسطة بين الشرق والغرب .